ثم قال: والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الإيمان … فشاهد العين مصدق، وشاهد الإيمان لا يلزمنا تصديقه إلا إذا جاريناه في إيمانه.

قالت: هذا قميص الكتاف يا أخي! هذا قميص الكتاف!

ومن الصعب أن تفهم ما يرضيها إذا اتهمت أمامك أخلاق الناس جميعها وراحت تقدح في دعاوي الصداقة والوفاء والفداء، فليس يرضيها أن تكون على رأيها لأنها تحب الرجل أريحيًّا ذا نخوة وحماسة وطموح إلى عظائم الآمال والرغائب، وتصديق بالوفاء والفداء.

وليس يرضيها أن تناقضها وتضطرها إلى التسليم؛ لأن الإكراه مكروه على كل حال.

ولكنها إذا كانت تجاري طبيعة المرأة في حب الجدل والثرثرة والعناد فهي تجاري طبيعة المرأة أيضًا في إعجابها بطموح الرجل وصلابته وأحلامه، وربما استراحت إلى الشعور بقوة عقله كما تستريح إلى الشعور بكل بأس فيه، فما كان يدري همام هل يناقضها أو يجاريها فيما تقول … وتلك حيرة يعالجها كل مَن عالج النساء.

قصَّت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله إليها «وسطاء الخير» ليسفر في الصلح بينها وبينه.

قالت: فهل تدري ما صنع؟ إنه جاء يغازلني ينفخ في جمرة الغضب بيني وبين زوجي!

ثم قالت: ما أكذب الصداقة في هذه الدنيا!

قال همام وقد أراد أن يعابثها ويسليها: إن صاحبنا لمعذور، وإن الإغراء بالخيانة لعظيم … فليت جميع الأصدقاء لا يخونون إلا بإغراءٍ كهذا الإغراء.

ثم ضحك وضحكت، وتماجنت في الضحك وراحت تقول له: أراك ضننتَ عليَّ بقميص الكتاف اليوم؟ لا، لا، إنني أريد اليوم قميص الكتاف … قل، قل أليست كل صداقة في هذه الدنيا لغرضٍ؟ هل يصادق الناس أحدًا إلا لمالٍ أو جمالٍ أو سلطانٍ أو نحو ذلك من الذرائع واللبانات؟

قال همام: ومَن لَمْ يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية من المزايا، فهل هو إنسان يستحق صداقة إنسان؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الأرعن قد ظفر بالأمنية الممنوعة، وجعلت تقول: ها هو ذا قميص الكتاف، ها أنت إذن أخيرًا يا بني! وأقبلت عليه تُقبِّله وتناوشه، وتبذل له ذخيرة من السرور، كأنها فاكهة مترعة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور.